التحدي والجواب عند «توينبي»

بقلم محيي الدين اسماعيل

استقصى المفكر الانكليزي الكبير « ارنولد توينبي » الحضارات التي اجتازتها الانسانية حتى عصرنا الحاضر ، ثم خرج العالم ، بنظرية من اعمق النظريات التي عرفها الجيل واصدقها .

فقد استعرض في مؤلفه الضخم « دراسة التاريخ » ثمانيا وعشرين دورة حضارية ، ابدعها الروح الانساني الخلاق ، خلال الستة عشر الف عام المنصرمة. وانتهى من ذلك كله ، الى ان هذه الدورات الحضارية المتناوبة ، تتابع الواحدة تلو الاخرى ، دراكا وفق قانون لا يعروه التغيير . وان نمو المجتمعات واندثارها رهين «بالتحديات» **Shallenges** التي تظهرها حضارة ما لاخرى، وبمقدار العنف في «الجواب» **Response** على هاتيك التحديات .

ومثال ذلك ، ان في حوض البحر المتوسط ، كانت ثلاث مجاميع من القبائل تتحرك باتجاه الغرب ، امام تحديات جغرافية في شرقي البحر المتوسط . اما الاجوبة عليها فكانت تتفاوت قوة وضعفا بين هاتيك المجاميع الثلاث .

والمجموعة التي اجابت بصورة اعنف من الاخريين ، هي مجموعة قبائل الاغريق ، الذين انتهوا الى ان اقاموا حضارة في « أيونيا » من اشد الحضارات القا والتماعا في متاهات التاريخ . وتليها مجموعة قبائل الفينيقيين الذين صمدوا حينا من الدهر واجابوا على تلك التحديات اصدق جواب ، ثم صمتوا بعد ذلك فراح عليهم الزمن . اما المجموعة الثالثة فهي مجموعة قبائل التروسكانيين الذين انطمس ريحهم وذهبوا بددا ، لانهم لم يكونوا قادرين على مواجهة التحدي بجواب يضمن كيانهم ، ويجعلهم قادرين على البقاء. وهكذا زال اسمهم ، ولم يعرف عنهم التاريخ شيئا .

وهناك مثال آخر على التحديات البيئوية وقع في عهد سحيق من التاريخ ، يوم ان كانت الصحاري في شمال افريقيا ، من أندر بقاع العالم في خصبها وثروتها ، وكانت تزدحم بالسكان من القبائل التي تقتات في تلك الغابات والاحراش اللفاء على الصيد وجني الثمار .

بيد ان التقلبات المناخية والجيولوجية، احالت هذه البقاع المزدهرة ، الى سباسب من الرمل الاسمر .. وبذلك وقف سكان هذه البيئة وجها لوجه امام تحد جديد من الطبيعة ، اذ وضعت امامهم علامة استفهام هائلة ، تتضمن الموت او الحياة . واذن ، فعليهم ان يغيروا من اسلوب حياتهم ، والا فالبيئة تسحقهم بقوانينها الصارمة ، فيندثرون.

فاستطاع البعض منهم ان يغير من طرائق معيشته في ظل الظروف الجديدة ، واولئك هم الذين استحقوا الحياة فعاشوا ، واخفق الاخرون ، فبادوا وطوتهم الصحراء ، او تناثروا في الارض على غير هدى ، واصبحوا قبائل من الاوابد البشرية الضائعة .

وتبدو التحديات التي يواجهها مجتمع من المجتمعات، على اشكال شتيتة متباينة لا تنتهي . فالتغلب على تحد ما ، يقود حتما الى مواجهة تحد آخر . وهكذا يظل « الفعل ورد الفعل » ، متتابعا ما دام هناك مجتمع ، اي ما دام هناك انسان .

فالاثينيون قد واجهوا تحديا من الطبيعة أخذ شكل ضيق في رقعة الارض، وفقرها وتكاثف السكان فيها. فقبل الاثينيون هذا التحدي، اول الامر، واجابوا عليه بجرأة وعزم ثم تغلبوا عليه ، باستيطان جزر الارخبيل واعمارها. ولكنهم ما كادوا يفرغون من ذلك ، حتى برز لهم تحد آخر ، نشأ عن الاسلوب الذي كانوا يتعاملون به مع اسبرطة، ومع عبيدهم الذين تفاقمت اعدادهم ، باتساع رقعة الارض التي انسحبت عليها ظلال سلطة الاثينين . وهكذا نجد انهم قد ترنحوا امام هذا التحدي الخطير ، وظلوا يحاولون الجواب عليه ، ليبرروا بقاءهم ، حتى حسم الامر بانهيار الحضارة الهلينية باسرها تحت اقدام العابرين .

وواجه النظام العثماني تحديا عنيفا ، في اول مراحله ، هو التحدي الجغرافي ، الذي استعلن ، مع انتقال هذه القبائل من اراضي السهوب الى البيئة الجديدة التي فرضت عليهم ان يتحكموا بمجموعات شتيتة من الاجناس والاقطار. وقد قابل العثمانيون هذا التحدي بجواب ، كان ايذانا ببقائهم عدة قرون ، الى بدأوا يصمتون امام التحديات المعقدة المتشابكة التي برزت امامهم في اعقاب القرن التاسع عشر ، من الداخل والخارج .

ويرى توينبي ان معيار النمو الحضاري ، لا يؤخذ من قياس القوة السياسية او العسكرية او الفنية، ولكن من قياس المقدرة على احداث التجاوب مع التحدي الذي يظهر باشكال وصور مختلفة، من ابسط الاشكال ، حتى اشدها تعقيدا وعمقا : من التحدي الجغرافي ، الى اعمق صور التحديات الاخرى ، التي تشهرها حضارة ما بوجه حضارة اخرى. ولعل الصراع او التحديات الحضارية المتقابلة ، بين الحضارتين التيوتونية واللاتينية ، هي ابرز الامثلة في

عصرنا الحديث ، بالرغم من انها لم تختتم بعد . فقد اخذت هذه التحديات صور الغزو العسكري المتبادل منذ مطلع القرن التاسع عشر بين المانيا وفرنسا ، ثم استحالت الى تحديات فكرية كيانية ، ما زالت دائرة الرحى على ميدان كياني او وجودي واحد . وما فتئت كل من الحضارتين التيوتونية واللاتينية تتحدى وتجيب في آن . فكان من ثمرات ذلك ، الاخذ والعطاء ، والغزو الفكري من الجانبين .. انها معركة التحدي والجواب . وقد نلمس ذلك واضحا عند من شاركوا في هذه المعركة .. « هيدغر » **Heidegger** يرى ان الانسان ، لا يقف وجاها امام العالم باسره ، كوعاء فارغ ، او « كبسولة » فارغة تملأ بالعقار بين حين وحين ، بل هو فاعلية حية تضرب برجلها « الارض » .. هو « وجود ــ على ــ الارض **Being-on-the-earth** و « ياسبرز » يؤكد على اتخاذ الانسان لموقفه ما بين ارفع المثل الروحية ، والظلام الروحي الذي قد يتدهور فيه .. لا بل الانسان ما هو الا مجرد « وجود ــ في ــ موقف » **Being-in-a-Situation** . اما سارتر ، فقد ربط في صميم الوجود الانساني ، بين فكرة « القلق » وبين « الاختيار » ، على نحو ينجم عنه ــ ولا شك ــ التحدي الفردي الذي ينتظر الجواب من الاخرين . وبالطبع ، ما زالت معركة « التحدي » و « الجواب » قائمة بين الحضارتين التيوتونية واللاتينية، وقد اسفرت، حتى الان ، عن اخصاب الجانبين .

ويذهب توينبي الى ان الفرصة الوحيدة لانقاذ الحضارة الغربية باسرها ، هي في بعث الروح الديني، باوسع معانيه اذ ان هذا الروح ، هو ينبوع الفعالية الفردية . فالفرد هو المبدع ، والافراد هم اسس الحضارات العظيمة . فهو ، في ذلك ، يذهب الى ما اكده « بالنيروس » في كتابه « القبر القلق » من ان « الحضارات ان هي الا نتاج الجبابرة المستوحدين » . وما انهيار الحضارات التي نراها ، على وجه التاريخ الطويل ، الا قصة فشل الفرد في مهمته الخلاقة هذه ، وانغماسه في الذهنية الميكانيكية ، وابتعاده عن روح الخلق واغترابه عنه . ومن ثم ، تهشيم مجتمعه الذي يعيش فيه ، طالما يساهم في الصمت عن التحديات التي تنثال عليه!

ويرى توينبي ، ايضا ان بعض الحضارات قد جاءها التحدي من الباطن ، لا من الخارج . واصدق مثال على ذلك ، هو سيطرة الاقليات التي شهدها التاريخ الهليني . فلقد كانت العبقرية العسكرية الهلينية ، قد ظهرت باروع صورها في الاسكندر المقدوني، بيد ان « فيريس » بسوء حكمه في صقلية الذي وصفه شيشرون ، وصفا بليغا شائنا ، كان ضربا من التحدي ، ولكن من الباطن . وكذلك التحديات المتكررة التي قام بها العبيد ، والتي اخذت اطارا فلسفيا على يد الرواقيين الرومان ، كل ذلك وطأ لانهيار روما امام برابرة الشمال . وما حدث في حضارتي روما وهيلاس ، حدث في حضارة بابل قبل ذلك ، بعد ان عانت ما عانت من « القبائل العشر الضائعة » اليهودية طوال عدة قرون ، الى ان انهارت من الداخل ، وانطوت صفحة بابل ، بمؤامرة «دانيال» لا من داخل بابل فحسب ، ولكن من داخل البلاط البابلي ذاته . وهذا ما يدعوه توينبي « بانفلاق الجسد الاجتماعي » **Schism in the booy social**

وهناك انفلاق اخر هو « انفلاق الروح » **Schism in the soul**

فالسلوك الفردي ــ عند توينبي ــ يتخذ سبيلين :السبيل الايجابي الذي يستطيع فيه الروح الانساني الفردي ، ان يسيطر على « العواطف الطبيعية » وان يقف بوجه تحديات العالم الخارجي ، وان يكافح من اجل السيادة على الطبيعة بطريقته الفردية الخاصة ، والسبيل السلبي ، الذي يرضخ فيه الروح الانساني لكل بادرة من بوادر التحدي التي ترد اليه . ومن الاول نجمت اشواق الانسان ، وتطلعه للسيادة في الكون.. ومنه نجمت ايضا أفكاره عن «العوالم الاخرى» وممالك اليوتوبيا ، والنزعة المستقبلية . اما الثاني ، فهو سبيل الارتداد والرضوح . فالملك أغيس الرابع ملك اسبرطة

صدر حديثا :

السنفونية الناقصة

مجموعة قصص

بقلم

صباح محيي الدين

دار الآداب - بيروت

اغنية الكرمة

« اكياس النور دموعي تملأها ودمي .. »
ويقص المنجل عنقودا ما في نهم
وترف الكرمة رفرفة الثكلى ، ويدٌ
سوداء تمسك منجلها اللماع وترتعد
يد فلاح قد لونها العملُ
والشمس ، وريح البصرة ، والوحل .
وتطير فراشات امنت في الدالية
وتحوم نحلات قلقات حول الساقية
وتساقط اوراق ذبلت فوق الترب
كجناح نفّض ريشا من ذهب .
« اكياس النور دموعي تملأها ودمي »
والطفل يسير على رجع النغم
ويلوّح في غصن مصفر مكسور
وبناظره ايماضة بلور
والشعر كواد محترق العشب
يطأ الاحجار برجل اقذر من درب
في حي عمالي .
ويلون رغيفا جف جفاف الصلصال
« اكياس النور دموعي تملأها ودمي »
والعاملة الحسناء المبسم في سأم
تجتاز ــ واقفاص العنب ــ
ربوات السعف واكوام القصب
وخطاها الخضر وعيناها
وضفائرها السوداء هويناها
وملايتها القطنية والحجل
والصوت الاعرابي يردده النخل
ذكرى يعتز بها الصيف
والمالك والفلاح وغصن الكرمة والضيف
وستترك اشباحا ملء الحقل
في ظل النخلة ، في جرف الانهار ، وفي كل
شيء . وسينعشها رجع النغم
« اكياس النور دموعي تملأها ودمي »
وتزود اقفاص بالاعشاب
وتعبأ بالاعناب
وستأتيها العربات مع الشفق
وتخلف شيئا من ورق
وسيكمل فلاح الكرمة اغنية الالم
« اكياس النور دموعي تملأها ودمي »
بيديّ جرحت الارض جراح المنتقم
وزرعت الكرم الى مليون فم
للتاجر ، للملاح ، وللمحكوم ، وللحكم
ولطفلي وامرأتي وفمي
وسهرت بحالكة الظلم
أحميه من الغربان ، من الاشرار ، من السقم
حتى امتلأت اكياس النور بدمعي او بدمي .

العراق ــ البصرة — **عبد الجبار داود البصري**

والحاكم طباريوس غراكوس Tiberis Gracchus حاكم روما ، كلاهما سلكا السبيل الثاني ، فساهما في رضوخ كل من اسبرطة وروما امام تحديات الاخرين ، وذلك بان تجاهلا النزعة المستقبلية في الروح الانساني ، وطفقا يحلمان بالعصر الذهبي الغابر . وهكذا نجد ، احيانا ان الروح الفردي ــ في الحضارة ــ يعيبه الانحلال والتفسخ ، ويعزل عن المجتمع .

وليست النزعة المستقبلية ، عند توينبي ، هي نزعة دنكشوتية مسلية باطلة ، تأخذ شكل غزوات فكرية او مادية غير ذات اهداف ، بل هي نزعة قيصرية تمضي لهدفها بدأب وتصميم . ويرى توينبي أن « كاتو » هو دنكشوت روما الاخرق ، اما يوليوس فهو قيصر روما بحق .

وهكذا نجد ان في ضوء هذه النظرية ، يبدو لنا ان كل حدث في التاريخ له اهميته ودوره في التطور الحضاري ، حتى نسيج «بنلوب» الذي تحوكه ، ثم تنقضه يوما بعديوم، لم يكن مصادفة واعتباطا .. فهو يقول مع « غوته » :

« في تيارات الحياة ، وفي اعاصير الحركة ،
في معمعان العمل ، في النار ، وفي الزوبعة ،
في الاعلى ، وفي الدون ،
أروح واغدو ،
ميلاد ، ثم قبر ،
واقيانوس بلا حدود ،
حيث الموجة التي لا تستقر ،
ابدا تتماوج ،
في الاعلى ، وفي الدون ،
كفاحها الفوار ،
يعلو ويحوك ،
تحولات الحياة ،
وعلى النول الصخاب للزمن ،
اظل احوك برقع الرب الحي »

يقول « توينبي » ان ما قاله « غوته » في قصيدته هذه، هو اصدق ما قيل في الزمن والتاريخ ، وان نظريته ، قد تكون بناء اقيم على هذا الاساس .

وعلى اية حال ، فهيهات ان يقول انسان الكلمة الاخيرة في الحياة . وان توينبي ، اول من يقر بعجز الانسان حيال القوانين الغامضة التي تحوكه ثم تبيده . فالانسان بتاريخه الطويل ، يجري الى قدر غير معلوم ، بيد ان الرجل ، قد استطاع ــ على الاقل ــ انيقف على شفير جرف التاريخ ، وان يلقى بنظره في الاعماق ، حيث الظلمات ليس لها قرار ... انه يقول : ان ما ذهبت اليه ، هو محض تساؤل لا غير!

بغداد — **محيي الدين اسماعيل**